التقنيات الحديثة في أعمال الفنانة منى حاطوم
اسم الباحث : محمد مصطفي محمد مسلم

التقنيات الحديثة في الفنون البصرية المعاصرة:

الفن المُركب أو ما يسمى الفن الإنشائي، وهو استخدام مواد مختلفة سواء جاهزة الصنع من حياتنا اليومية أو أي مواد طبيعية أخرى، يكاد يكون غريباً على الساحة الفنية في العالم العربي، وما زال التساؤل قائماً عن المغزى من إقحام هذه التقنيات والخامات في الفنون البصرية المعاصرة، وهذا يعود لعدة أسباب منها غياب وتحديث الخطاب الفني المعاصر، ومتابعة ما يجري من تطور متسارع في الفنون البصرية على الساحة العالمية.

إن جلب خامات مختلفة من أماكن بعيدة كل البعد عن مضمار العمل الفني، وتهيئتها لخوض غمار التعبير عن فكرة ما، يُمثل تحدي يشوبه الكثير من المغامرة، ويجب أن يتخلله عملية بحث واستقصاء عميقة، وهنا تجدر الإشارة إلى الفنان الفرنسي الكبير مارسيل دوشامب1 ورؤيته الحداثية تجاه ابتكار توظيف الأعمال المركبة فنياً، والاعتراف بها كعمل فني مستقل بذاته، وهو ما سُمي في ذلك الوقت بالأشياء الجاهزة الصُنع. إن هذا الفنان كان سبّاقاً في استخدام وسائط جديدة، فاتحاً المجال للاعتراف بالأعمال الفنية التي تتبنى استخدام كل ما يمكن أن تقع عليه عين الفنان، وتوظيفه بشكل ملائم في العمل الفني، من أجل إعلاء شأن الفكرة، بِغض النظر عن الخامة المستخدمة سواء فنية أو غير ذلك، وكان رائداً في تناوله لأشياء من حياتنا اليومية مُصَنَّعة مُسبقاً. "ابتكر مارسيل دوشامب (جاهز التصنيع) 1916م وعرض عملين جاهزي التصنيع في قاعة بورجيوز في نيويورك2"

إن المواد المُصّنعة بتنوعها الهائل وبطبيعتها الغنية، تَهبُ العمل الفني جوهر صفاتها ولغتها التعبيرية الخاصة. إن ما يثير فضول الباحث تجاه توظيف المواد الجاهزة في الأعمال الفنية المُركبة هو صدقها المتناهي في التعبير، ففيها تكمن لغة الأشياء الحقيقية، وقدرتها على النطق بمعاييرها الخاصة، فنحن لا نرى عمل فني يُمثِّل شيئاً ما باستخدام وسائط الرسم التقليدية كالرسم والتلوين، بل نرى ذات الشيء يتجلى بجيناته الخاصة في التعبير عن ذاته. "إن لكل فن واسطة وأدوات خاصة به، وهذه الواسطة وُجدت لتلائم نوعاً من التواصل والنقل، وكل واسطة تتنبأ بشيء لا سبيل للإفصاح عنه بلسان آخر إفصاحاً جيداً مكتملاً".(3)

إن استحضار خامة مُعينة دون غيرها هو ما يحدده مسار العمل الفني المُركب، بدءاً ببزوغ الفكرة، مروراً بالبحث عن الخامة الأكثر تلاحماً معها، فالكثير من الأفكار الفنية تُولد عبر تجارب عديدة تنطوي على متعة البحث والاكتشاف، واستحضار خامات مُدهشة، وتوظيفها بطرق مغايرة، وفي بعض الأحيان يكون الفضل للخامة في استحضار الفكرة من خلال لغتها البصرية التي يُدركها الفنان، وبالتالي يُطوعها لخدمة فكرته الفنية، وليس استخداما من أجل الدهشة أو الترف بدون رؤية فنية.

تنتمي حاطوم في أعمالها وفكرها الفني إلى ما اصطلح على تسميته بالتقليصية، وهى احدى اتجاهات ما بعد الحداثة التي تتبنى فكرة الاختزال والاختصار في العمل الفني، وتقليص استخدام الأشياء والمواد وتجسيد العمل الفني بالخامة الأبسط والأكثر ملائمة، وتحمل طاقة تعبيرية مُجسّدة ومليئة بالأفكار المراد التعبير عنها، فهذا المذهب يدعو إلى إطالة التأمل في العمل الفني البسيط شكلياً والذي يُعبّر بالمقابل عن مضامين إنسانية وأفكار عميقة.

التقنيات الحديثة في أعمال الفنانة منى حاطوم:

وُلدت حاطوم في بيروت عام 1952م، لعائلة فلسطينية هُجّرت من مسقط رأسها في مدينة حيفا شمال فلسطين المحتلة أثر أحداث النكبة في عام 1948م. درست أول الأمر التصميم في بيروت لمدة عامين، وذلك تحايلاً على أهلها الذين أرادوا لها مهنة تضمن لها وظيفة في المستقبل. عملت في مجال التصميم لفترة قصيرة ثم درست الرسم والتصوير لمدة ثلاث سنوات، ثم توجهت في زيارة عائلية قصيرة إلى بريطانيا عام 1975م، لكن شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن تُغيّر هذه الزيارة مشوار حاطوم الفني، حيث اشتعلت الحرب اللبنانية وأُغلقت المطارات في لبنان ولم تتمكن من العودة، على أثر ذلك التحقت بكلية للفنون في لندن التي لم تحتسب لحاطوم أي من سنوات الدراسة السابقة في لبنان، وبدأت دراسة الفن من جديد. كان ذلك

1 Marcel Duchamp يوليو 1887 – أكتوبر 1968م، فنان فرنسي ترتبط أعماله بالدادية، يُعتبر أحد أهم فناني القرن العشرين. ويكيبيديا، تاريخ زيارة الموقع 9-3-2019.
2 كاترين ميبه، الفن المعاصر، ترجمة رواية صادق، دار شرقيات، الطبعة الأولى، 2002م، ص 18.
(3) جون ديوي، الفن خبرة، ترجمة زكريا ابراهيم، دار النهضة العربية، القاهرة، 1963م، ص 179.

بداية المشوار الذي أهّل حاطوم فيما بعد لتصبح من أهم وأشهر الفنانات العرب في أوروبا، حيث أقامت معرضاً في عام 2000م في قاعة التيت جاليري في لندن، وهي من القاعات الأشهر والأعرق في العالم، كما تحتل أعمال حاطوم اليوم قاعات المعارض الخاصة في أكبر متاحف الفن الحديث في العالم.

تربط حاطوم أعمالها بالواقع اليومي والمعاش، من خلال استغراقها بتأمل الطبيعة من حولها، واستنباط العديد من الأفكار من وحيها، ومن خاماتها متتبعةً نهج البساطة في التعبير، دون السقوط في التسطيح، كما تسعي في الكثير من أعمالها إلى وضع المشاهد كجزء من العمل الفني من خلال إقحامه جسدياً، وأن تترك له المجال بأن يشعر وكأنه متورط في خلق علاقته الخاصة بالعمل الفني سواء جسدياً أو فكرياً "في أعمالي الإنشائية أردت أن أورّط المشاهد في الوضع الظاهري حيث تكون التجربة أكثر فيزيائية ومباشرة. لقد أردت من المشاهد أن ينشغل بالجانب البصري من العمل بطريقة مادية أو حسيّة. وربما عاطفية أيضاً: أما التداعيات والبحث عن المعنى فهي أمور تأتي لاحقاً. وعلى الرغم من أن العنوان قد يوجه اهتمامك إلى جانب واحد من العمل، فإنني آمل أن يظل العمل مفتوحاً إلى حد يتيح المجال فيه لتأويلات مختلفة.1"

حَوَّلت حاطوم طريقة العرض الفنية، والأداء الفني التقليدي إلى أطر وصياغات فنية جديدة، وكانت سبّاقة دوماً في تبنيها، وهذا ما كان يلاقى الرفض الشديد في البداية، لكن إصرار حاطوم ومتابعتها لمنجزاتها الفنية وَضَعَها في مكانة فنية هامة، وباعتراف دولي جعلها تحصل على أرفع الجوائز الفنية الغربية، كان آخرها جائزة الأكاديمية الملكية السويدية للفنون الحرة، وهي تُمنح كل ثلاث سنوات لمبدعين قدّموا أعمالاً هامة في عدة مجالات.

اتسمت لغة حاطوم الفنية بالجرأة والتطور، فقد تضمنت أعمالها عُروضاً جسدية وأعمال فيديو مسجلة وأعمال مُركبة في الفراغ سواء داخل أو خارج قاعات العرض، ومنذ انطلاقتها وهي تطرح مضامين حميمية وحرجة، وقد استطاعت بلورة شخصيتها الفنية الإنسانية وجعلت من أعمالها لغة عالمية دون تفريغها من محتواها الاجتماعي والسياسي. تنطلق حاطوم من أفكارها باحثة عن الخامة الأكثر ملاءمة لتُعبّر بها وتستقيها من المكان وعلاقته بالإنسان، فأعمالها تناقش قضايا إنسانية بالدرجة الأولى، لكن بلغة فنية حداثية ترفع من شأن مضمون العمل. "على الفنان أن يكون لديه ما يقوله، لأن "البراعة" في إبداع الأشكال ليست غاية الفنان، بل هي تطويع الشكل ليؤدي معناه الباطن".(2)

التقنيات الحديثة في الأعمال المركبة لمنى حاطوم:

تُحَوّل حاطوم مضامين أعمالها من خلال استخدام ذكي وواعي للخامة سواء جاهزة الصنع أو يتم تصنيعها خصيصاً لعملها الفني، أو دمج عدة خامات لخلق لغة ومضامين جديدة، إنه فضاء يوحي مباشرة بالتوتر والقلق والتنافر في بعض الأحيان، ويُفضي إلى أفكار متناقضة تماماً مع ما تحمله الخامة الموظفة في العمل الفني مع ما تحمله ذات الخامة من أنماط وأشكال مُخزّنة سابقاً في ذاكرتنا، وقد تَحوّلت هذه العناصر ذو المنفعة الحياتية اليومية إلى أشكال صادمة، وقد تكون مُؤذية في كثير الأحيان، وهنا تحاول الفنانة استفزاز الذاكرة البصرية، وحث المشاهد لخلق وإيجاد أفكار جديدة ضمن رؤياه وعلاقته الخاصة بالخامة، مما قد يُفضي إلى فضاءات مغايرة عما قد تود الفنانة قوله، وهو ما يُمثّل اختلاف كبير بين المشاهدين في رؤيتهم لخامة معينة وبالتالي إحساسهم وتأويلهم للعمل الفني.

عملت حاطوم العديد من الأعمال الإنشائية التي تستحق التوقف والتمعن بها بأصالتها ومحليتها، ففي إحدى أعمالها التي تصف بها الوضع السياسي الفلسطيني، بخاصة ما آلت إليه المناطق الفلسطينية المُجزأة بسبب الاحتلال الإسرائيلي، وصعوبة التواصل الجغرافي فيما بينها بعد اتفاقية السلام المسمية أوسلو، فقد قَدّمت عمل أسمته (فعل الحاضر) وقد وَظّفت الصابون النابلسي التقليدي "نسبة إلى مدينة نابلس في فلسطين" والمصنّع محلياً ويدوياً في فلسطين منذ آلاف السنين، وما زال يُصنّع إلى يومنا هذا. فردت حاطوم أرضية القاعة بهذا الصابون وحقنته بالدبابيس ذات الرؤوس الحمراء، راسمة بها خريطة أوسلو وحدود المناطق الفلسطينية التي تُجزئ الوطن وتُقسمه إلى أجزاء صغيرة متناثرة دون أي معني جسدي يربطها، فبدا الصابون – رمز الأرض والمكان – وكأنه مصاب بمرض سرطاني خطير. كما يُمثل الصابون رمز الزوال والذوبان بطبيعته الخاصة، وهو ما يوحي بذوبان الحدود المُصطنعة بقوة الاحتلال، وفي ذات الوقت يُعتبر هذا النوع من الصابون أحد أهم مفردات

1 منى حاطوم، دارة الفنون – مؤسسة خالد شومان، الأردن، 2009م, ص 21.

(2) فاسيلي كاندنسكي، الروحانية في الفن، تعريب فهمي بدوي، تقديم محمود بقشيش، تعقيب وملاحظات صبحي الشاروني، دراسات في نقد الفنون الجميلة، الجمعية المصرية للنقاد بالتعاون مع الهيئة العامة للكتاب، الكتاب الثامن 1994م، ص 103.

التراث الفلسطيني المتوارث منذ قرون (شكل 1) "اخترت الصابون النابلسي، للأمر علاقة بالمكان، لاحظ أن البعض تحدّث عن معسكرات الاعتقال النازية، أنا لم أكن أقصد أكثر من الحديث عن خريطة وطرق فلسطين المقسمة، وعن الصابون الفلسطيني الذي ما زال الناس يصنعونه بأيديهم، وهذا قمة التواصل والاستمرار في المكان. بعض الفلسطينيين حين شاهدوا العمل سألوني إذا ما كنت أقصد أن هذا الصابون سيذوب يوماً ما وبذلك تنتهي اتفاقية أوسلو. الناس تعمل كثيراً على تطوير تفسير ما للعمل، لكن هذه هي الطريقة البسيطة التي أردت أن أشير بها إلى ملاحظاتي عن التنقل في داخل فلسطين.(1)"

تمنح حاطوم أعمالها في فن التشكيل في الفراغ أهمية بالغة من حيث آلية التنفيذ والخامة الملائمة، لذلك تلجأ في غالب الأحيان لمصانع وشركات مختصة لتنفيذ عملها الفني بالدقة المتناهية، وبالآلة الصناعية الحديثة بإشراف مباشر منها، حتى أن المشاهد يشعر أنه أمام شكل مُصَنّع بمنتهى الدقة والأناقة، ففي أحد أعمالها المُركبة تعرض أدوات منزلية بسيطة استعارتها من المطبخ (وهي آلة تقطيع الخضار)، قامت بتنفيذها بحجم ضخم يفوق

(شكل 1) منى حاطوم، فعل الحاضر صابون محلي الصنع عدد 2200 قطعة ودبابيس برؤوس حمراء، 1999م.

(شكل2) انقسام أكبر، فولاذ، 204*3.3 سم بعرض متحرك، 2002.

حجمها الطبيعي عشرات المرات، وتتجاوز حجم الإنسان، وكأنها تُقولب الأدوار، وتضعنا في حالة إرباك أمام أداة من المعتاد أن نتحكم بها ونستخدمها بحجمها الصغير لنُقطّع بها الخضار، وهي هنا بشكلها الضخم وكأنها مُقبلة لتطحننا (شكل 2).

تتناول حاطوم في أغلب أعمالها أشياء مألوفة لنا، مُخَزّنة في ذاكرتنا بمعايير محددة مسبقاً، نتحسّسها دوماً في مفردات حياتنا اليومية، كأنها مسكونة بهاجسنا اليومي والبسيط، فمن خلال منزلنا وحديقتنا تطرح لنا حاطوم العديد من الأسئلة من خلال اللعب بذكاء على تبديل الأدوار والأحجام. "أحب أن أستخدم الأثاث في عملي لأنه يُشير إلى الحياة اليومية، بعض هذه القطع تكاد تكون قابلة للاستعمال، ولكنها غالباً ما تتحول إلى أشياء غريبة. نحن نتوقع عادة من الأثاث المنزلي أن يوفر دعماً وراحة للجسم. فلو تحولت هذه القطع إلى أشياء غير مستقرة، أو مصدر تهديد، فإنها ستصبح دليلاً على هشاشتنا."2

(شكل2) انقسام أكبر، فولاذ، 204*3.3 سم بعرض متحرك، 2002.

تُعَبّر حاطوم وبأبسط أدواتنا اليومية عن انسداد الأفق الحقيقي الذي تعيشه أمتنا العربية في واقعنا المتردي، فقد أحضرت مصفاة حديدية من المطبخ لتُغلق فتحاتها ببراغي حديدية وبقسوة إغلاقاً مُحكماً، لتُعبّر عن هذا الانسداد الحقيقي في أمل فلسطيني وعربي عاجز (شكل 3 و 4). "سدّت الفنانة ثقوب مغرفة ومصفاة بمسامير معدنية، فاكتسبت هاتان الأداتان شكل أسلحة (قضيب شائك ولغم أرضي). ووفقاً لحاطوم، التي نَفذّت أولى هاتين المنحوتتين أثناء برنامج إقامة في القدس، إنما أوحى إليها بالعملين هو اختبارها لتلك الحواجز العسكرية المفاجئة والمتكررة على الطرق في هذه المدينة."3

1عاطف أبو سيف، مجلة الشعراء، فصلية ثقافية تصدر عن بيت الشعر، فلسطين، المحرر المسؤول المتوكل طه، مقال "منى حاطوم الغريبة في حصار جديد"، رام الله العدد 13، عام 2000م، ص 186.

2 منى حاطوم، دارة الفنون، ص 24.

3 منى حاطوم، دارة الفنون، مرجع سابق، ص 33.

)

في

(شكل3) لا سبيل، فولاذ ضد الصدأ، 4*41*13سم، 1996م. (شكل4) لا سبيل 2، فولاذ ضد الصدأ، 11*25*29سم، 1996م.

أحد أعمالها تصنع حاطوم على الأرض خريطة كبيرة جداً للعالم بكرات زجاجية صغيرة بحجم عُقلة الإصبع، فعندما تدخل القاعة تشعر أن الكرات الزجاجية اهتزت بمجرد دخولك، وبأن العالم على وشك الانهيار، في إشارة حقيقية لهشاشة هذا العالم. كأنها تدق بعملها هذا جرس الخطر الحقيقي الذي أَلَمّ بعالمنا المحيط، فالكرات الزجاجية جعلت الأرض خطرة، ويمكن أن ينزلق أي شخص يدخل العمل ويسقط على هذه الكرات وينهار العمل بأكمله بانهيار أي جزء بسيط منه، في إشارة ضمنية على ترابط هذا العالم (شكل 5 و 6)، تُشير حاطوم أن هذه هي حقيقة عالمنا. تضع المشاهد كجزء من العمل ليشاركها في هذا الإحساس، فكثيرة هي أعمالها التي يشعر المرء بداخلها بخطر وفزع حقيقي. الكثير من أعمالها تُشعرنا بالاضطراب وربما السقوط وعادة ما تضعنا حاطوم في أجواء عروضها الفنية المُتقنة من حيث الإخراج، فالخلفية الموسيقية للعمل والإضاءة الخافتة، ووضعنا الجسدي كجزء من فراغ العمل كلها عناصر شَكّلت في مجملها هوية حاطوم الفنية. "فن التجهيز في الفراغ يتجاوز المركزية والثوابت الموروثة الخاصة بالقيم الجمالية التي نشأت في أوروبا وسادت زمناً طويلاً، ليُعبّر بطريقة خاصة عن موضوعات تتجاوز الحدود الإقليمية، بعد أن أصبح العالم قرية واحدة، ومشاكله أصبحت مشاكل كونية تُؤثر في شتي أرجاء البلاد، فالتعبير عن الحروب– الفقر– الجوع– المشكلات الاجتماعية– القمع والاضطهاد السياسي– الهويات والثقافات الإقليمية، كل هذه الموضوعات تم التعبير عنها دون التقيّد بالمفاهيم التشكيلية والجمالية التقليدية ".(1)

شكل5) خريطة، آلاف الكرات الزجاجية الصغيرة. 2015م، "تظهر الفنانة في يسار الصورة". **(شكل6) تفصيلية من الشكل السابق.**

في أحد أعمالها (شكل 7) قَدّمت سجادة حمراء منسوجة من الحبال الكهربائية، وتنتهي هذه الحبال بمصابيح كهربائية مضيئة، في محاولة لتحميل الشكل نقيضه المباشر فالسجاد يُعبِّر عن حالة الاستقرار والسكينة، وهي هنا إنما توحي بحالة مضطربة ومقلقة مع الحفاظ على أناقة جماليات الشكل العام للعمل الفني. "أردت أن أقدّم أعمالاً تمنح مزايا للجوانب البصرية والشكلية المتعلقة بالمادة في صناعة الفن، وأحاول أن أُفصح عن السياسي من خلال جماليات العمل."2

(1) عادل ثروت، العمل الفني المركب وفن التجهيز في الفراغ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، آفاق الفن التشكيلي 29، 2014م، ص 122.

2 منى حاطوم، دارة الفنون ، مرجع سابق، ص 23.

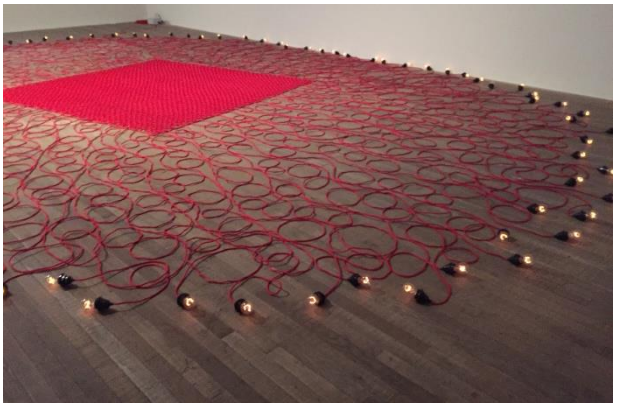

(شكل7) تيار خفي، سلك كهربائي مغلّف بقماش، ومصابيح كهربائية.

شكل8) حركة نقل، كرتون مضغوط، بلاستيك، معدن، شعر آدمي، 48*65*68سم.

في عملها (شكل 8) تستخدم جزء من جسد الإنسان، وهو الشعر الطويل الذي يشير إلى جسد الأنثى، وقد تسرَّب من بين شنطتي السفر، وهذا يُذّكرنا بحركة ونمو هذا الجزء المستمرة من جسدنا دون الأجزاء الأخرى. إن تسرّب الشعر الإنساني الأنثوي من خلال شنطة السفر والتي لا يمكن أن تحتوي باقي الجسد في إشارة إلى مجموعة مُكثفة من المعاني، فالعلاقة بين الجسد والتنقل وهو ما رمزت له بشنطتي سفر، وهو ما يوحي بإشارة إلى الجسد الآخر الغير ظاهر بصرياً في العمل الحاضر ذهنياً في ذات الوقت، قد يقودنا هذا العمل إلى العديد من الأفكار تبعاً لرؤيتنا الذاتية، أحد هذه الأفكار قد يُفضي إلى حركة الإتجار بالبشر التي ما زالت قائمة إلى يومنا هذا. "استطاع فنانو التجميع أن يوجدوا علاقة بين أعمالهم الفنية وبين أحداث المجتمع من خلال الدلالات الرمزية التي تتضمنها الخامات المستخدمة مثل الخامات جاهزة الصنع".(1)(شكل8) حركة نقل، كرتون مضغوط، بلاستيك، معدن، شعر آدمي، 48*65*68سم.

إن ما تُوحيه أعمال حاطوم للمشاهدين من إرباك مقصود وصادم لدى استقبال أدمغتهم وذاكرتهم المسبقة لهذه الأشكال وفي سياقات وأحجام مختلفة، هو ما يوحي بصدمة مباشرة تُحفِّز الفكر لاستنباط المعاني من خلال اللعب على هوية الأشكال وتوظيفها بطرق مغايرة مع الاحتفاظ بالمعني الأوّلي الذي ما زال يحمله الشكل برغم هذا التحوير، وهذا ما يقود إلى معاني أخرى لكن من خلال الهوية الأولى للشكل. "أريد للعمل أن يكون له حضور شكلي قوي، وأن يُوجِد من خلال التجربة الفيزيائية تجاوباً نفسياً وعاطفياً. بشكل عام، أريد أن أخلق حالة يصبح الواقع فيها مسألة مشكوك فيها، حيث ينبغي للمرء أن يُعيد التفكير في افتراضاته وعلاقته بما يحيط به."2

إن أعمال حاطوم المركبة ومن خلال اللعب على تناقض المعني، وإعادة توظيف الخامة بشكل وحجم مغاير، ما هو إلا إشارة توحي بالاضطراب والإزعاج إلى درجة الخوف والإحساس بالخطر في بعض الأحيان، في العمل (شكل 9) تعرض حاطوم مجموعة كبيرة من أكياس الخيش المستخدم في الثكنات العسكرية بطين الأرض الخصب بطول عشرة أمتار، ناثرة حبوب القمح مع الطين، والتي نبتت مع الوقت من خلال ثقوب الأكياس، والتي تُذكرنا بشكلها المصّطف كساتر وجدار فاصل لحماية الجنود في الحروب للوقاية من نيران العدو، عمل يُذّكر بأوجاع الحرب، وأيضاً بالمآسي الشخصية والترحال من البيت والديار، واللجوء الجماعي والتكدس في مخيمات اللجوء، وهنا ينمو العُشب الأخضر رمز الأمل برغم الضيق والحصار، مُقتحماً أكياس الخيش التي تحاول أن تسد الأفق، لكن استمرار العشب بالنمو داخل القاعة مؤدياً إلى تغير شكل العمل يوماً بعد آخر، وهو ما يحمل دلالات هامة أبرزها الحفاظ على الأمل برغم أوجاع الحروب واللجوء والترحال، ففي النهاية سينتصر شكل العُشب بلومه الأخضر ويُغطى علي مشهد الأكياس الطينية

(شكل9) حديقة مُعلقة، أكياس خيش، تراب، عشب، 140*350*100سم، 2008،

(1) عادل ثروت، العمل الفني المركب وفن التجهيز في الفراغ، مرجع سابق، ص 33.
2 منى حاطوم، دارة الفنون ، مرجع سابق، ص 21.

من خلال المادة تربط حاطوم بين الرجل والمرأة، فغطاء الرأس في (شكل 10) هو لباس الرجل في الزي الشعبي الفلسطيني، وهنا طرّزَته حاطوم بشعر أنثوي يتجاوز إطار الوشاح، وهي هنا تحاول تأنيث أحد أهم مفردات الرجولة في الموروث القديم، وتصف حاطوم هذا العمل بقولها: "تخيلت نساء يقتلعن شعر رؤوسهن من شدة الغضب، ثم التحكم بهذا الغضب من خلال النقل الصبور لتلك الشعيرات نفسها إلى اللباس اليومي الذي أصبح رمزاً فعالاً لحركة المقاومة الفلسطينية. وبهذه الحالة يمكن النظر إلى التطريز على أنه لغة أخرى، ضرب من الاحتجاج الصامت."1

(شكل10) شعر بشري على قماش قطني، 120*120سم، 1999م.

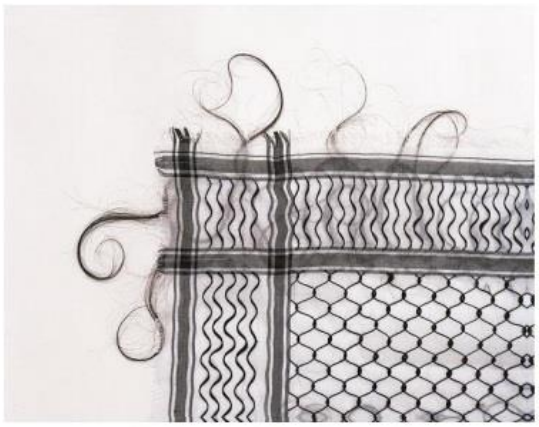

(شكل11) تفصيلية من الشكل السابق

فن الجسد كأداة للتعبير في أعمال الفنانة منى حاطوم:

تُعتبر حاطوم من الفنانات الفلسطينيات والعرب الأوائل التي قَدّمت أعمال فنية تنتمي إلى فن الأداء الجسدي، وتوظيف الجسد جسد الفنان، حيث يقوم بالأداء مباشرة أمام الجمهور وهو ما يستوجب على الفنان أن يقوم بحركات جسدية أدائية ولفترات قد تستمر لساعات أمام الجمهور، وهو ما يتطلب جرأة وتدريب إضافة إلى جهد جسدي كبير، وهذه تقنية استعان بها الفنان البصري المعاصر من الممثلين المسرحيين، وهو هنا إنما يقوم باستعارة أدوات ومهارات من حقل فني آخر لتوظيفها في حقل الفنون البصرية مستخدماً الجسد كأداة مباشرة للتعبير عن أفكاره.

تجاوزت حاطوم استخدام الجسد الخارجي كأداة هامة للتعبير عن أفكارها، وكانت سبّاقة في اقتحام الجسد الإنساني من داخله وسبر أغواره، ففي إحدى أعمالها التي لفتت إليها الانتباه أقنعت طاقماً من الأطباء بإدخال كاميرا تصوير دقيقة كتلك التي تستخدم في العمليات الجراحية، أدخلتها إلى جسدها من خلال فمها مرفقة بآلة صوتية تُسمع المتلقي لأصوات تجري بداخلها وبداخله لا يدركها مسبقاً. قامت بعرض مباشر لما يجري داخل جسدها، على أرضية القاعة المغلّفة في بناء أسطواني ذوي فتحتين ضيقتين متقابلتين، كأننا ندخل عالمنا الداخلي الغريب علينا فعلاً، وهو العمل الذي أطلقت عليه (جسد غريب)، وهو يحمل دلالات هامة من حيث علاقتنا نحن البشر بأجسادنا وغربتنا عنها (شكل 12). قدّمت حاطوم أعمالاً كثيرة تدور حول علاقتها بالجسد وأهميته فهو كما ترى في إحدى مقابلاتها (محور التلقي والاستيعاب). إن حاطوم أثارت الكثير من التساؤلات بفلسفتها المُجسّدة في أعمالها الفنية من خلال الجسد، وخاطب فنها الكثير من المعاني التي تدور حول الجسد مثل: القمع الجسدي والنفي والمقاومة. تتحدث حاطوم عن عملها هذا في إحدى اللقاءات قائلة: "من خلال هذا العمل كنت أحاول أن أتحدث عن الغزو المطلق لحياة الإنسان، لقد أسميته (جسد غريب) لأن أجسادنا ورغم التحامنا بها فإنها غريبة عنا، إنها منطقة غريبة لا نستطيع الوصول إليها إلا بمساعدة الأجهزة العلمية، وجسد غريب لأن الكاميرا هي جسد غريب مثلما لو ابتلعت قطعة من الحجر، وجسد غريب كجسد إنسان أجنبي، وجسد غريب مثل أمور كثيرة أخرى. السيناريو المُفضل لديّ هو أن يتأثر المشاهد بشكل مباشر بالعمل الفني، سواء أكان ينجذب إليه أو ينفر منه بشكل فيزيائي، أريد أولاً أن أحصل على رد فعل جسدي ومن ثم – وفقط بعد هذه التجربة الأولى– أن يبدأ بالتفكير بالمعاني الكامنة وراء العمل وهي عادة مختلفة من شخص إلى آخر، وكل

1 منى حاطوم، دارة الفنون ، مرجع سابق، ص 26.

واحد سيكون له قراءته الخاصة اعتماداً على تاريخه ووعيه الباطني، أنا لا أستطيع التحكم كاملة بهذه القراءة، ولا أريد أن أتحكم بها أساساً."(1)

في هذا العمل تُحوّل حاطوم فضاءها الشخصي الأكثر خصوصية إلى مشاع عام، وكأنها تُعيد تشكيل الصورة النمطية للجسد الأنثوي وحجبه في الكثير من المجتمعات المُحافظة، هنا تحثنا الفنانة على إعادة النظر إلى جسد الفنانة "الأنثى" المُتاح من أسفل أرجل المشاهد وهي نقتحم هذا الجسد من داخله، في إشارة إلى توحد جسد الأنثى مع جسد الرجل من خلال عرض هذا الجزء الداخلي، حيث تذوب الفروق ما بين الأنثى والرجل، هذه المشاعر راودت الباحث حين شاهد هذا العمل عام 1999م في متحف بومبيدو وسط باريس، وإن لطريقة العرض أسفل وبين أقدام المشاهد تأثير قوي، وهو ما يوحي بالتواضع والرهبة أمام هذا المشهد وهشاشة هذا الجسد.

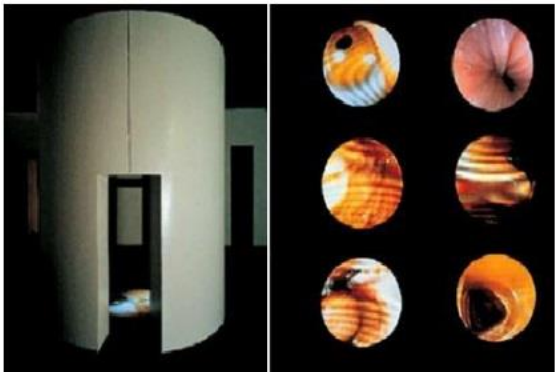

(شكل12) جسد غريب، تركيب فيديو مع أسطوانة خشبي، 1994م، جهاز عرض فيديو، مُكبر صوت، سماعات، 350* 300سم قطر، الصورة على اليمين "تفصيلية من داخل الشكل على اليسار".

في أحد أعمالها المُرهقة جسدياً (شكل 13) بقيت حاطوم سبع ساعات متواصلة، في حاوية شفافة مليئة بالوحل والطين لا يزيد عرضها على المتر الواحد، كأنها في صراع ذاتي مع الطين أصل تكوين البشر، تحاول الوقوف فتفشل، وتحاول من جديد وهكذا تستمر طوال السبع ساعات، وهي تقاومه أو تقاوم ما قد يعنيه لها أو للآخرين، وهي تقف وتنزلق رغماً عنها. هكذا تقوم حاطوم بالمقاومة المُرهقة داخل وعاء الطين الذي يُغطي جسدها بالكامل، وكأنها تضعنا وجهاً لوجه أمام الجسد العربي العاجز الغارق في الوحل، مرافقة للأداء المُؤثر وارتطامات الفنانة المتكررة بأصوات مُسجّلة من داخل الجسد لضربات القلب وتقلبات المعدة، وهي محاطة ومحاصرة أيضاً بالجمهور المُحتشد حولها وحول وعائها الطيني، في تجسيد لحالة أخرى من الحصار، وهي تقاوم وتقاوم لساعات متواصلة دون أن تستطيع الوقوف والثبات. هذا هو الحال الذي ترمز إليه حاطوم، حتى أن كثيراً من الجمهور فسّر العمل على حالته الإنسانية كلٌ في بلده ومعاناته باختلاف جنسه، وهكذا تنتهي حاطوم من هذا العمل بهزيمة الجسد والذي عنونته ب (تحت الحصار).

(شكل13) تحت الحصار، عرض شخصي في إناء مكعب زجاجي ملئ بالطين (سبع ساعات متواصلة) 1982م.

في (شكل 14) تصنع حاطوم من صورتها الشخصية في لوحة إعلانات بزاوية جانبية وبنظرة حادة، ومواجِهة إلى الجندي الذي قزّمته من خلال التلاعب بحجمه ووضعه في صورة لعبة صغيرة، وهو ما يناقض معناه الحقيقي، وهي هنا تتحدى هذه القوة المُتغطرسة التي رمزت لها بالجندي، وتستخدم اسماً للعمل من قول مأثور "على جُثتي" وهو ما يُعبّر عن التحدي والقوة الأنثوية في وجه غطرسة الحرب.

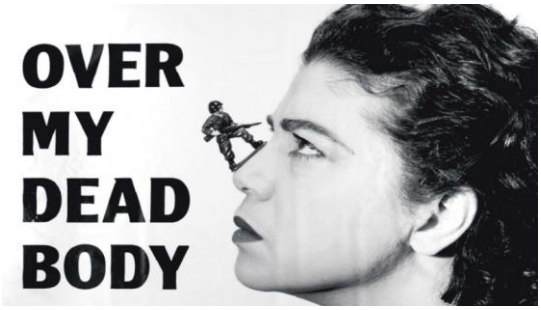

(شكل14) على جثتي، لوحة إعلانات، حبر على ورق، 204*304 سم، 1988م.

لحاطوم علاقة مع جسدها تدعو إلى التأمل، فهي تشعر أننا نعطي أهمية بالغة للجسد دون الرأس الذي يُشكل لغة التخاطب الحقيقية، فقد قامت حاطوم ولسنوات بالاحتفاظ بالشعر المتساقط من جسدها، وهي تشعر بأهمية هذا الجزء المتساقط يومياً هنا وهناك، وفي الحمام، محتفظة به ولسنوات في علبة صغيرة واضعة إياه تحت سريرها، كأنها

1 موقع قناة الجزيرة الفضائية القطرية، ارشيف برنامج موعد في المهجر، http://www.aljazeera.net تاريخ زيارة الموقع 3-3-2019م.

في علاقة حميمة مع أجزاء جسدها، أو لربما أرادت أن تقول به شيئاً ولم يحن الوقت الملائم أو لم تختمر الفكرة لديها، فهي تثير العديد من التساؤلات من خلال الجسد، فالأفكار تستوجب ما يلائم التعبير عنها مع اختلاف الوسائل وتنوعها المذهل في عالمنا المعاصر. "كلما توافر لدي شيء يستحق القول، كنت أقوله بالطريقة التي أحسست إنني كنت مرغماً على قوله بها آنئذ. إن الدوافع المختلفة لا بدّ أن تستلزم أساليب مختلفة في التعبير. وذلك لا يتضمن التطور ولا التقدم، بل يعي الموائمة بين الفكرة التي يود المرء التعبير عنها، وبين وسيلة التعبير عن تلك الفكرة"1.

خاتمة البحث:

إن استخدام مواد وتقنيات مختلفة في العمل الفني المعاصر ما هو إلا تجاوب مع متطلبات التعبير عن الفكرة، والبحث عن خامة تبرر وجودها فنياً، كما يُعد مواكبة للتطور المتسارع في حقل الفنون البصرية والبحث عن وسائط جديدة تخدم فلسفة العمل الفني. فهو ليس استخداماً من أجل الترف بل تكمن خصوصيته في استحضار الخامة الأكثر ملائمة للتعبير عن الفكرة، وبالمقابل أيضاً للخامة ومكانها المحيط فضل في تحفيز الفنان لخلق أفكار فنية من وحي طبيعتها، ولغتها البصرية الخاصة.

لقد اقتحمت الخامة بتنوعها الهائل عالم الفنون البصرية، وصار النظر لها كما هو النظر لخامات الفنون التقليدية كأدوات الرسم والألوان المختلفة، وأصبح توظيف أي خامة مُصّنعة وجاهزة يدخل في سياقات مُحددة ضمن رؤية وفلسفة كل فنان، وله مبررات وفلسفة محددة، ولا يمكن قياس أهمية العمل المركب فقط بمجرد استخدام بعض الخامات الغريبة والجديدة. كما تطور وتشعب استخدام الخامات تبعاً لتوجه الفنانين ورؤيتهم للعمل الفني، كما يمكن دمج الكثير من الخامات بما لا يدع مجال لقيود حرية الفنان، بل يمكن المزج بكل حرية بين كل ما يقع عليه عين وأذن الفنان مما لا حصر له من خامات سواء طبيعية أو جاهزة الصنع، كما يمكن دمج أي صوت طبيعي أو من تأليف الإنسان في العمل الفني. لم يكتف الفنان المعاصر بهذا الأمر بل أقحم جسده الخاص في العمل الفني، وأصبح أداه يطوّعها لخدمة أفكاره، وقام بأداء أعمال فنية بشكل مباشر أمام الجمهور وقد يتم تسجيلها وتُعرض فيما بعد كعمل بتقنية الفيديو، أو أن يتم تنفيذ العمل في محترف الفنان ويتم عرضه على شكل شريط فيديو مصور مسبقاً.

نتائج البحث:

- للتقنيات والمواد الحديثة بتنوعها الهائل دور محوري في فنون ما بعد الحداثة وبخاصة فنون التركيب.
- للتقنيات والمواد الحديثة سواء طبيعية أو مُصّنعة أثر واضح في أعمال الفنانة منى حاطوم.
- للتقنيات والمواد الحديثة ما يبرر وجودها في العمل الفني المعاصر ضمن رؤية الفنان وليس من أجل الترف أو الدهشة.
- الجمهور الفني تحول إلى كعنصر هام يمكن توظيفه في الأعمال المركبة أو الأدائية.
- أصبح الجسد الإنساني أداة هامة في التعبير الفني سواء جسد الفنان أو أي موديل آخر.

مراجع البحث

1. جون بيرغر، بيكاسو، نجاحه واخفاقاته، ترجمة فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، 2010م.
2. جون ديوي، الفن خبرة، ترجمة زكريا ابراهيم، دار النهضة العربية، القاهرة، 1963م.
3. عاطف أبو سيف، مجلة الشعراء ، فصلية ثقافية تصدر عن بيت الشعر، فلسطين، المحرر المسؤول المتوكل طه، مقال "منى حاطوم الغريبة في حصار جديد"، رام الله العدد 13، عام 2000م.
4. عادل ثروت، العمل الفني المركب وفن التجهيز في الفراغ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، آفاق الفن التشكيلي 29، 2014م.
5. فاسيلي كاندنسكي، الروحانية في الفن، تعريب فهمي بدوي، تقديم محمود بقشيش، تعقيب وملاحظات صبحي الشاروني، دراسات في نقد الفنون الجميلة، الجمعية المصرية للنقاد بالتعاون مع الهيئة العامة للكتاب، الكتاب الثامن 1994م.
6. كاترين ميبه، الفن المعاصر، ترجمة رواية صادق، دار شرقيات، الطبعة الأولى، 2002م.
7. منى حاطوم، دارة الفنون – مؤسسة خالد شومان، الأردن، 2009م.
8. موقع قناة الجزيرة الفضائية القطرية، ارشيف برنامج موعد في المهجر. http://www.aljazeera.net

1 جون بيرغر، بيكاسو، نجاحه واخفاقاته، ترجمة فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، 2010م، ص 65.